



## مكانة الجزائريين في الحركة الفكرية (التصوف) ببلاد الشام مهاجرو تلمسان أنموذجا

سهيل الخالدي

كاتب وباحث - دمشق

### ملخص

يتناول هذا البحث الدور الذي قام به المهاجرون الجزائريون (التلمسانيون أنموذجا) من تلمسان وضواحيها في بلاد الشام حيث كان لهم دور في الجانب الديني والثقافي، اضطلعوا به ضمن دورهم في الفكر القومي العربي الإسلامي. لقد صنع الجميع من سوريين ومهاجرين جزائريين التاريخ السوري - الجزائري المشترك خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد، وصاروا مواطنين سوريين بقدر ما هم جزائريين. والملاحظ أن الشام عرفت التصوف القادم من بلدان المغرب العربي وفي طبيعتها الجزائر، تصوفا نضاليا ضد الظلم والغزو الأجنبي، وليس وسيلة تخدير للجماهير كما أراده ويريده السياسيون في أمس واليوم.

الكلمات الدالة: المهاجرون التلمسانيون، الشام، التصوف.

### 1- الدور الفلسفي والسياسي والشعبي للتصوف في العالم الإسلامي

بدأ التصوف الإسلامي على يد نخبة من الفلاسفة الدينيين يقضون وقتهم في تأمل الخالق ويسعون إلى مزيد من المعرفة عنه عبر الارتباط الروحي. ومن أمثال هؤلاء الحلاج. وكانت العزلة والبعد عن الناس ومباهج الدنيا ومكاسبها الطابع الأساسي لهؤلاء العابدين فاكسبوا إعجاب ومحبة وثقة الناس وتبجيلهم العالي، وقد أثرى هؤلاء بتأملاتهم وأشعارهم الكثير من الجوانب الروحية للإسلام، وكان تأثيرهم في الناس عظيما. فالتصوف يعتبر جزءا أساسيا في التراث الإسلامي، والاهتمام به قديم، وتناوله المؤرخون والعلماء العرب والمسلمون كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري وغيرهم، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا والغزالي وابن خلدون، وتجادل فيه فقهاء ومستشرقين. والتصوف ليس ظاهرة إسلامية خاصة فقد عرفته ديانات سابقة مثل المسيحية والهندية والفارسية والفلسفة اليونانية. وبشكل خاص الديانات الفرعونية حيث يعتقد البعض أن مصر هي منشأ التصوف والتصوف الشعبي بشكل خاص باعتبار أن المصريين كما قال المؤرخ اليوناني هيرودوت أكثر شعوب الأرض تدينا.

وقد ارجع بعض المؤرخين مصطلح "التصوف" إلى رجل زاهد متعبد في الجاهلية كان يلقب بـ: (صوفة) واسمه هو الغوث بن بركان أو في رواية أخرى الغوث بن مر، كما أشار الزمخشري في أساس البلاغة، والفيروز آبادي في قاموسه المحيط إلى أن قومآ في الجاهلية سماوا بهذا الاسم وكانوا يعبدون الله في الكعبة ومن تشبه بهم سمي صوفي. ومنهم نشأت فئة الحنفاء مثل ورقة بن نوفل. ولا يزال هناك خلاف واسع حول التسمية في اللغة العربية.

(وقد اختلف في أصل كلمتي صوفية وصوفي، فقد أطلقت الأولى على هذا العلم والثانية على المتحقق به، واستعملت كلمة تصوف للدلالة على السلوك... وكلمة متصوف للدلالة على السالك في الطريقة).<sup>1</sup> ويرى البعض أن التصوف علم فلسفي لا يعتمد التجريب مثل باقي العلوم بل يؤمن بالحدس، لذلك فهو لا يستخدم مناهج الفلسفة في العقل، ولا مناهج العلماء (الملاحظة والتجربة)، بل هو منهج يعتمد الكشف أي المعرفة المباشرة بالله دون وسائط وبالتالي فهو عطية إلهية لا ينالها من لم يعطها له الله مهما كانت معرفته أو مكانته، وحتى يمكن للصوفي أن يحظى بالكشف والمعرفة المباشرة من تدريب نفسي شاق وطويل لا يقوى عليه إلا القلة القليلة من المباشرين وبعد كل هذا الشقاء لا يضمن المتصوف أنه وصل إلى الكشف. ويقوم هذا التدريب النفسي والبدني المعجز على قواعد ثلاث هي:

- الزهد، بما يعنيه من ترك الدنيا بكل متاعها ومتعتها وحالها وقالها والتفرغ للأخرة.

- الولاية، وهي تشبه فكرة الإمامة في المذهب الشيعي، والولاية تبدأ من النقابة وصولآ إلى درجة الغوث؛ حيث الكرامات والخوارق والمسؤولية على حفظ الكون كله وليس المجتمع فقط. ومن هنا كانت للولي في أي طريقة صوفية سطوته. حيث يكاد يكون نسخة ما من الفرعون المقدس أو نسخة قريبة من الألوهية كما في الأديان اليابانية حيث أن الملك هو سليل الإله (الشمس) فلا أحد يخرق إرادته.

- المحبة، وهي محبة الله بل الذوب فيه، ومحبة الناس كل الناس بدءآ من الزملاء في الصوفية والتفاني من اجلهم وهذا يعني مجموعة لا تنتهي من خصال التسامح.

## - نشأة التصوف

نشأ التصوف الإسلامي كعلم مدون بعد نشوء وتدوين العلوم في الصدر الأول كعلم النحو وعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين؛

1 - فاطمة، الحسينية اليرشوطية (د. ت). رحلة إلى الحق. (د. ط)، نسخة موجودة في مكتبة الأسد بدمشق تحت رقم 30148 ص 17.

والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض الميراث" وغيرها.

وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

- الحارث المحاسبي، المتوفى سنة 243 هـ، ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة التوهم.

- أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة 277 هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله.

- أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى سنة 378 هـ، وله كتاب: اللمع في التصوف.

- أبو بكر الكلاباذي، المتوفى سنة 380 هـ، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف.

- أبو طالب المكي، المتوفى سنة 386 هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.

- أبو قاسم القشيري، المتوفى سنة 465 هـ، وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف.

- أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة 505 هـ، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر كتب التصوف ومن أجمعها. ومن المعروف أن الغزالي اعتكف في دمشق بالجامع الأموي في الزاوية المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه.<sup>2</sup>

ويرجع المتصوفة أورادهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الصحابة فيقولون انه كان يخص بعض أصحابه بورد يتفق مع درجة الصحة وحال الصاحب، وخاصة منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي اختصه بورد النفي والإثبات، وأبو بكر الذي اختصه بورد الإسم المفرد ثم أخذ عنهما بعض من التابعين هذه الأذكار وسميت الطريقتين: بالبكرية والعلوية. حتى التقتا عند الإمام أبي القاسم الجنيد، ثم تفرعتا إلى الخلوتية، والنقشبندية. واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة: الرفاعي، الجيلاني، البدوي والدسوقي الذين شيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم. وتوجد اليوم طرق عديدة جداً في أنحاء العالم ولكنها كلها مستمدة من هذه الطرق الأربعة. إضافة إلى أورد أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية والتي تعتبر أوراده جزءاً من أورد أي طريقة موجودة اليوم.

ومن الملاحظ إن التصوف انتقل إلى بلاد المغرب العربي والأندلس من المشرق،

2 - ابو حامد، الغزالي. إحياء علوم الدين. (د.ت) 1م، 3ط، ص5، دار الفكر، بيروت.

لكنه ازدهر فيها سواء لجهة توسعه أو لجهة عمق تأثيره في الناس خاصة في القرن السابع الهجري على يد محيي الدين بن عربي الذي أثرت كثيرا في الحياة الصوفية في المشرق العربي بعد هجرته إلى دمشق. وكان المشاركة يكون احتراما عاليا للمتصوف آخر سبقه في العهد الأيوبي هو أبو مدين شعيب الذي اثر في الحياة الصوفية في المشرق بعد إقامته في القدس.

وأحب أن أشير هنا إلى حقيقة يقفز عنها كثير من مؤرخي هذا الزمان من مغاربة ومشاركة وأوروبيين نصارى وهي أن التصوف في الأندلس والمغرب العربي له تأثير كبير في الفكر المسيحي الأوروبي في فترة من الفترات، وهو ما يظهر جليا في كتابات ريموند ليليو المتأثر بابن عربي، كما تأثر به الإيطالي دانتي في الكوميديا الإلهية.<sup>3</sup>

## 2- التصوف في الجزائر وتأثيراته

بدأ التصوف في الجزائر أو ما يعرف قديماً بالمغرب الأوسط، تصوفاً نظرياً نخبوياً، ثم تحول إلى تصوف شعبي عارم ابتداء من القرن العاشر الهجري، متخذاً بعدا اجتماعياً وذلك بسبب الظروف السياسية التي عاشتها بلدان المغرب العربي في القرون الثلاث السابقة، فكلما اضطرت السياسة أو غابت، يجل الدين محلها لينظم حياة الناس، عملاً بقاعدة الطبيعة تكره الفراغ، وكان من أوائل أتاد المتصوفة العمليين الشعبيين في الجزائر أبو مدين شعيب بن الحسن الذي ارتحل إلى القدس مجاهداً. وقد عرفت طريقته المدنية شهرة واسعة في الجزائر وسائر بلدان المغرب العربي وانتسبت كثير من العائلات لها، وتسمت باسمها سواء بلقب مدني أو مدني ثم ازدادت نشاطاً على يد أبو الحسن الشاذلي تلميذ ابن مشيش، وصارت تعرف بالطريقة الشاذلية. وكان لتعاليم الشاذلي في الجزائر الأثر الأكبر بحيث يكاد البعض يجزم أن معظم الطرق التي ظهرت بعده تصل بطريقة أو بأخرى بالطريقة الشاذلية التي لا يزال الناس يتسمون بها اسماً شخصياً أو لقباً عائلياً. وليس في الجزائر بلدة ليس لها زعيمها الصوفي ومدرتها الصوفية التي تلتف حول الزاوية مركز القيادة السياسية والاجتماعية والدينية. والكثير من القرى والبلدات والأعراس سميت باسم (سيدي...) فلا احد يذكر اسم الصوفي الولي مجرداً دون سيدي. معظم هؤلاء الأسياد من أعلى جبال جرجرة في الشمال إلى أقصى قصور الصحراء في الجنوب ينتسبون إلى بدايات عهد المرابطين حيث الساقية الحمراء ووادي الذهب وشنقيط، وكلهم ينسبون إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حسنين وحسنين لا فرق بين عربي أو بربري. وقد ظل

3 - علي، أحمد (1989). الأندلس والمغاربة في بلاد الشام في نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن العاشر الهجري. ط 1، ص 178، دمشق.

الوضع قائما قرونا بعد زوال دولة المرابطين والموحدين. ولا يزال شيخ الزاوية في أي منطقة من الجزائر كما في بلدان المغرب العربي هو المؤثر الحقيقي في الناس. لذلك يلجأ إليه الساسة والموظفون. وهي ظاهرة تعم الوطن العربي كله تقريبا. فهذا الوطن لم تستطع هذه الدول القائمة فيه منذ قرون أن تمنعه من أن يكون زاوية كبيرة. لذلك يعاني الساسة العرب معاناة شديدة مع هذه الزاوية، فهم حتى الآن لا يعرفون مداخل هذا المواطن فيلجأون إلى المتصوفة الذين يتربعون في قلوب الناس بمن فيهم أولئك الذين لا يظهرون أي تدين في حياتهم اليومية. قضى على أمل اللاتكيين في أن تكون لهم الكلمة العليا في كل بلدان المغرب العربي بما فيها الجزائر ذات التأثير القوي، ليس في هذه المنطقة التي تتوسطها بل حتى في أفريقيا جنوب الصحراء التي ينتمي كثير من ناسها إلى طرق صوفية ذات منشأ جزائري. ولعل هذا التأثير الجزائري الصوفي في أفريقيا جنوب الصحراء هو الذي دفع بعض مؤسسات البحث في الولايات المتحدة الأمريكية أن تسعى لاقتناء ما تستطيع من المخطوطات العربية والإسلامية التي بين يدي الناس وفي المساجد والزوايا، لدراسة عمق تأثير التصوف الجزائري خصوصا والمغاربي عموما في المجتمعات الإسلامية، عربية وغير عربية، ووضع الإستراتيجيات التي تناسب المصالح الأمريكية في هذه المناطق.

### 3 - التصوف والسياسة

المتصوفون من المغرب العربي وخاصة من أهل تلمسان ذات العلاقة المتينة بالأندلس وبالمشرق العربي عبر عدة قرون؛ هم الذين أعطوا حركة التصوفية في الوطن العربي والعالم الإسلامي محتواها المقاوم للغزو الأوروبي وحققوا خطوة نوعية في موضوعة الدين والسياسة، بل ربما يمكنني أن أجازف وأقول أنهم قاموا بإعادة تموقع المشهد الديني داخل المشهد السياسي في منطقة المغرب العربي وانتقلوا بطرقهم التصوفية المسيسة إلى المشرق. وكان إشتغال المتصوفة بالسياسة شيئا لم يعرفه المتصوفون في المشرق العربي منذ عهد الحسن البصري في القرن الثاني للهجرة الذي رفض مقاومة طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي فشكل ذلك بداية خضوع التصوف للسلطة، أما أبو حامد الغزالي فقد تقدم خطوة إلى الأمام في الخضوع للسلطة باعتباره نشأ في بلاط أحد الوزراء السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية، وألف كتابا ضد الحركة الإسماعيلية أسماه "فضائح الباطنية" لحساب الخليفة العباسي المستظفر بالله الذي لا يكاد التاريخ يذكره وفي ذات السياق كتب كتابه تهافت الفلاسفة والذي رد عليه أهل المغرب العربي بكتاب "تهافت التهافت" وبلغ التداخل بين السياسة والتصوف أوجه في المغرب العربي حيث أسس المتصوفة دولتين على الأقل هما دولة المرابطين

ودولة الموحدين. وفي العصر الموحدني في المغرب الذي يقابله العصر الأيوبي - المملوكي في المشرق. قرب صلاح الدين الأيوبي المتصوفة واستعان بهم لحت الناس على الجهاد. وهكذا جاءت فرصة كبيرة للمتصوفة في الوطن العربي أن يكونوا جزءا مهما من الحياة السياسية سواء في المشرق أو في المغرب على أرضية مقاومة الغزو الصليبي مشرقا وتفكك المغرب العربي والأندلس إلى طوائف.

وكعادتهم أراد الساسة الرديئون استغلال تأثير الدين في الناس لحسابهم، فلم يسلم المتصوفة من تدخلاتهم حتى أولئك الصوفيين الذين يعلنون بعدهم عن السياسة. وشهد التاريخ العربي الإسلامي في المشرق أو في المغرب علاقة شد وجذب بين أهل الساسة وأهل التصوف، ولأنك تزع بالسلطان ما لا تزع بالقرآن كانت الغلبة لأهل السياسة فانقسم المتصوفة وقامت بينهم معارك كبيرة، أشعل معظمها أهل السياسة الذين مالوا إلى هذا الجانب أو ذاك؛ ليس حبا فيه بل لإضعاف الطرف الآخر حتى يخضع أكثر فأكثر الطرف الذي يقربونه إليهم، فاتهمت الطرق الصوفية بعضها بعضا وشن كل طرف هجومه على الآخر. واتخذت هذه الهجومات في أحيان كثيرة طابع استعداد السلطة والناس على الطرف الآخر فاتهمه تهما شتى اقلها الزندقة والإلحاد، وأوصلوا العديد منهم إلى أعواد المشانق. ولعل أخطر ما في حروب المتصوفة هذه هو ما جرى في القرن التاسع عشر الميلادي حين استطاعت قوى الغزو الفرنسي في الجزائر والبريطاني في السودان من اختراق بعضها وتحريض كلا منها على الآخر. فقامت هنا وهناك معارك طاحنة كان المستفيد الوحيد منها الاحتلال الأجنبي.

ولم تفعل قوى الغزو الاستعماري جديدا سوى إعادة اكتشاف الماء الساخن؛ إذ أنها تعلمت من سلطة الاستعباد العثماني التي سبقتها، فهذه السلطة، وخاصة في عهدها الطوراني أوغلت في استثمار الحركات الصوفية في الوطن العربي مشرقه ومغربه لتثبيت حكمها الذي أفرغه الطورانين الأتراك من مضمونه الإسلامي وحولوه إلى استعباد قومي واضطهاد عنصري، أثبت التاريخ في وقت لاحق انه لا يختلف عن الاستعمار الأوروبي إلا بدرجة أو درجتين.

وكان الناس في العالم الإسلامي، خاصة منذ أواخر العهد المملوكي في المشرق وعهد الطوائف في المغرب. قد فقدوا الأمل في الإصلاح السياسي، فتوجهوا إلى المتصوفة بحثا عن مخرج. فصارت هذه المدارس الصوفية حركات شعبية مؤثرة على الناس، فخافتها الطبقة السياسية، فاخترقتها - وخاصة الدولة العثمانية - تفاديا لخطورتها وصولا إلى انضمامها إلى صف الدولة، فمثلا أن أول ما فعله السلطان سليم العثماني حين وصوله دمشق هو أنه زار قبر محي الدين بن عربي وبنى عليه المقام الكائن في جبل قاسيون بحي المهاجرين والذي ما زال ماثلا حتى اليوم والذي دفن فيه الدمشقيون بجوار ضريح بن عربي الأمير عبد القادر الجزائري

تعظيما لهذا الأمير الصوفي المجاهد.

#### 4 - التصوف في الشام

حتى الآن لم أجد في المكتبة العربية كتابا يبحث في التصوف باعتباره ظاهرة قومية عربية رغم أنه أهم الدلائل على وحدة الفكر القومي العربي الإسلامي وتفاعله مشرقا ومغربا، فمعظم الكتب الموجودة تبحث في التصوف من وجهة نظر قطرية محضة، سواء في مصر أو غيرها من الأقطار العربية، رغم أن مؤلفي هذه الكتب القطرية لم يستطيعوا تجاوز حقيقة أن أكثر المتصوفين النافذين في مصر أو الشام هم من أصول مغاربية فأسماء مثل: سيدي بومدين بن عربي، عبد القادر الجزائري، بن يلس، الهاشمي التلسماني لها رنين خاص عند الناس في المشرق العربي، وبالتالي نسأل لماذا لم يدرس هؤلاء على هذه الأرضية القومية من طرف الباحثين في جامعاتنا سواء كانت مشرقية أو مغربية؟

وأعتقد أن هذه القومية العربية الإسلامية المقاومة للظلم والطغيان، والاحتلال التي يتصف بها التصوف العابر للأقطار العربية هي نفسها السبب الذي يقف وراء تجاهله، فهي صفة لا تريدها أنظمة الدول القطرية القائمة، التي تريد من التصوف أن يكون أداة من أدوات خدمتها وتبرير أفعالها وإطالة عمرها، كما لا تريده الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي تسعى اليوم لإعادة توظيف التصوف ليكون عامل فرقة ليس بين العرب فقط بل بين المسلمين في كل أنحاء العالم، خاصة منذ حادثة 11 سبتمبر 2001 في نيويورك حيث صارت الإستراتيجية الأمريكية ترمي (إلى تعزيز التصوف في وجه الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامي)<sup>4</sup>.

ويبدو أن المهتمين بالشأن الإسلامي في الجزائر على وجه الخصوص من المتصوفين والسلفيين قد وقعوا في شرك الإستراتيجية الأمريكية واندلعت بينهم مباحكات فكرية وتهم متبادلة حتى على صفحات الصحف مما حداني إلى كتابة مقال في جريدة الجزائر نيوز بعدد الخميس 25 نوفمبر 2010 تحت عنوان "تلمسان المقاومة والتصوف"، قلت فيه: "وصلتني دعوة كريمة من الجهات القائمة على تنظيم فعاليات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011، وتأملت هذه الدعوة التي حدد أصحابها لي موضوعاً يتعلق بهجرة التلمسانيين إلى الشام وكنت قد اهتمت بموضوع أثر التلمسانيين في المشرق العربي منذ أربعة عقود حين زرت تلمسان مع مجموعة من الصحفيين العرب في تربص يديره الزبير سيف الإسلام، أحد رواد الصحافة الجزائرية.

ولاحظت في تلك الزيارة تقاربا بين لهجة تلمسان ولهجات بعض المدن المشرقية،

4 - علي، حسن عمار (2007). الصوفية والسياسة في مصر. ط2، ص 203، القاهرة.



كدمشق والقدس وخاصة لجهة قلب القاف إلى الهمزة، والمخارج الرقيقة لمعظم الحروف.

وزادني تعلقاً بالبحث بعض العادات الأخرى سواء الهندسة المعمارية التي برز تأثيرها في روايات محمد ديب ثم في روايات واسيني الأعرج، وكذلك الاهتمام بالياسمين، وغيرها من مفردات الثقافة التلمسانية المتشابهة مع مثيلاتها المشرقية، إلى أن قرأت ذات يوم أن العقال الذي يضعه رجال الشام والجزيرة على رؤوسهم، جاءهم من تلمسان، حيث وضعت النسوة التلمسانيات عصابة سوداء فوق غطاء الرأس الأسود حداداً على سقوط الأندلس، وهي عادة تعود اليوم بأشكال جديدة على رؤوس بعض النسوة.

ثم عثرت عند أحد باعة الكتب القديمة على حيطان دمشق على ديوان شعري لشاعر يدعى الشاب الظريف محمد العفيف التلمساني، فأهديته إلى أخي الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السائحي، فمن أحق منه بمثل هذا الكتاب وهو الباحث في شعر وحية ابن تيارت القريبة من تلمسان "أبو بكر التيهرتي".

وقادني كل ذلك إلى بحث أثر أهل المغرب العربي وخاصة الجزائريين في الثقافة في المشرق العربي. وكلما قطعت خطوة ازددت عجباً، فالسائد عند كثير من الباحثين الجزائريين الذين يعتمدون المصدر الفرنسي، أن المشاركة هم أصحاب التأثير الأكبر في الثقافة في الجزائر، حتى أن مصطفى الأشرف تحدث في كتابه "الجزائر: الأمة والمجتمع" عن قومية شرقية وعرفت أن تلمسان تبدو وكأن المصادر الفرنسية ما زالت تشن عليها حروب الأندلس الشهيرة وعزلها تماماً عن نشاطها الحضاري.

وانكشفت الوقائع. لأن الزمن كشف بطبعه. فزاوية المغاربة في القدس ثم حارة المغاربة التي يشن عليها الصهاينة اليهود حرباً خاصة، هي في الأصل بناها سيدي بومدين شعيب التلمساني، وحركة التصوف في بلاد الشام تكاد تبدأ من عند هذا الرجل الذي أسس حركة صوفية واسعة مقاومة للغزاة الصليبيين وامتدت لتقاوم ظلم الحكام المحليين. وامتد أثر التلمسانيين وثقافتهم إلى القاهرة وغيرها من حواضر بلاد المشرق العربي شامية وغير شامية.

وحين انحرفت الطرق الصوفية عن الأصل الذي نبتت فيه، وهو مقاومة الغزو الأجنبي والظلم المحلي ردحا طويلا من العهد العثماني. جاء إلى الشام عام 1911 مهاجرا من تلمسان الشيخ محمد بن يلس ومعه تلميذه محمد الهاشمي، فإذا بالشوام يلتفون حوله، فقد جاءهم قامة عالية في التصوف والمقاومة حتى أن الطريقة الشاذلية الدرقاوية انتشرت من جديد انتشارا واسعا، وليس سرا أن الدولة العثمانية ومن بعدها الاحتلال الفرنسي ضيقا على الرجلين. وبالمقابل ازداد عدد مريديهما وتلاميذهما تزايدا مقلقا.



وأنا أتتبع سيرة هذين التلمسانيين وأثرهما الثقافي الديني في المنطقة، زرت أمكنة وصورته مقابر، ومن أطرف ما عثرت عليه صورة للشيخ محمد الهاشمي تعود إلى خمسينيات القرن العشرين تظهره وهو في الثمانين من العمر يتدرب على السلاح مع شبان في عمر أحفاده، وقد نشرت إحدى الصحف صوراً له وهو في ساحة التدريب مع مانشيت يقول لا مستقبل للاستعمار بين شعب يحمل مسنوه السلاح.

إذن، أليس من حقنا أن نسأل ونبحث ونعمق البحث في دور تلمسان في ثقافة المقاومة للغزو والظلم مغرباً ومشرقاً الممتدة منذ ستة قرون؟ أليس من حقنا أن نشكك في هؤلاء وأولئك الذين يضعون ويصنعون الحواجز بين الجزائر والثقافة العربية سواء على مستوى الكتاب والصحيفة والاقتصاد والسياسة وحتى الدين، وأنهم يقومون بتدمير مذهب للثقافة الجزائرية وامتداداتها وتأثيراتها. ثقافة تشكل أدق جزئيات العقلية الجزائرية، وهي مقاومة الغزو والظلم؟ أليس لنا أن نأمل بأن تكون فعاليات تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية، إعادة تجديد لعنصر وقيمة المقاومة في هذه المدينة، فهي إن لم تفعل ذلك سينطوي عامها كعرس لا يلبث أن ينساه الناس بعد أن هدروا فيه ما لهم ووقتهم.

وفي الحقيقة يظهر الفكر القومي العربي الإسلامي وتفاعلاته بين المشرق والمغرب، في أبهى تجلياته. في مصر والشام، وفي الشام كان للمتصوفة دور كبير خاصة في عهد المماليك، فالملك الظاهر بيبرس كان يعتقد صوفياً اسمه خضر بن موسى المهراني وبنى له زوايا في دمشق وحمص وحماة وبلبك وغيرها، وأخذ يشركه في أمور الدولة ثم انقلب عليه. ورغم تقلب المماليك في مواقفهم من المتصوفين إلا أن مكانة المتصوفين كانت كبيرة عند الشوام خاصة وأن التصوف صار في نظر المشاركة هو الموقف ضد الظلم وضد الطغيان سواء في المشرق أو في المغرب والذي مثله ذلك الصوفي القادم إلى دمشق مهاجراً من فساد ملوك الطوائف، محي الدين بن عربي الذي أجله وقده العرب الشوام لدرجة أنهم لم يأبهوا لأقوال فقيه الشام ابن تيمية الذي كفره، ولا أقوال العديد من الفقهاء في المشرق والمغرب مثل إبراهيم البقاعي في كتابه "تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي" وأبو حيان الأندلسي، وتقي الدين السبكي وعيسى بن مسعود الزواوي وابن إياس في تاريخ مصر، وابن نور الدين في كتابه "كشف الظلمة عن هذه الغمة". وحين فتح السلطان سليم العثماني الشام وأراد التقرب من قلوب الشوام أمر ببناء مقام كبير على قبر محي الدين بن عربي حيث (اعتقد السلطان سليم العثماني أن شفاعته وبركة ابن عربي هي التي أدت إلى انتصارهم - أي العثمانيين - على البيزنطيين وفتح القسطنطينية، لأن ابن عربي نفسه قد تنبأ بهذا الفتح وهذا ما حدا بالسلطان سليم أن يأمر ببناء مسجد ومدرسة حول

آربة ابن عربف ورتب الأوقاف عفهما).<sup>5</sup> بل انبرى كآفر من المثقففن الشوام وآفر الشوام للدفاع عن ابن عربف والرد على متهمفه مثل نصر المنبآف وأسعد الفافف وبهآ الدين الكآزرونف وكمال الدين الزملكآنف والصفدف والكنف. لقد انقسم الفقهاء الشوام انقسامآ ظاهرا آول ابن عربف لكن الجموع الدمشقف لا تزال منذ ذلك الوقت تزور كل يوم جمعة مقامه تبركا به وفضع المسورون منهم الصدقات وخاصة الآبز على الفقراء وأطلقوا على تلك المنطقة التي ففها القبر من آبل قاسفون آف الشفآ آف الدين. ولا فزال الناس على عآدتهم آف فومهم هذا لم تنقطع أسبوعآ وآدا رآم ما مر على دمشق من صروف وظروف، لأن ظاهرة التصوف فف بلاد الشام تشمل العفد من الآلات، ولعبت دورآ أساسف فف آفد ملامآ هذه المنطقة من الوطن العربف، ما دام التصوف فقوم بدور شعف منذ قرون، وكان ابن عربف ممثلا للآفاح ضد ظلم الآكام وطآفانهم. واستطاع سلفم العثمآنف أن فستمفل قلوبهم فعلا باهتمامه بشفآهم الأنلسف الذف صار دمشقفآ.

لكن السآسة العثمآنفن الذفن قامت سفآستهم لقرون عفدفة على إستآلال الدين، وبآآالف المتصوففن والفقهاء لصالآ إستآلال دماء العرب لصالآ آروبهم وتوطفد سلطآنهم، وإقصآئهم عن العمل السفاسف وشؤون الدولة سواء فف الشام أو آفر الشام وظهر آبل من الصوففة فملىء الآكام وسفطفد منهم على آساب الناس وفقرهآهم وتبادل الصوففة والولة العثمآنفن المنفعة واستفاد كل من الآآر، فالسلطة شآعت التصوف ورأت فف التفاف الناس وآزآحامهم آول المشآف فرصة سآآة لتآنفدهم أو آففدهم على لأقل ففنا وآد المشآف فف هذا مسألة آآقق لهم المكسب المآدف والآظوة لدى الآكام فصآروا فف ركآبهم وآمنوا على تصرفآته.<sup>6</sup> فف دمشق القرن التاسع عشر ففنا عآزت الدولة العثمآنفة آمامآ عن فآآد آفة آلول لمشكآلات الآآمع السفاسفة والإآآصآدفة والآآدمفة، ناهفك عن المشآل النآآة عن الكوارآ مثل الآفاف والففضانات والزلازل مهما صآرت، وآعطت الإنطباع بأنها تهفئ البلاد للإآآلال الآآنف الذف شملت تدآلاته آف الآفة الفومفة للناس فف الأسواق والعلاقة بفن الفئات؛ وآدنا آزدهارا للطرق الصوففة فمكنف تصنفها إستنادآ إلى كتاب قهوفف فف آلاثة أصناف:

1. فئة العآبدفن وهم الذفن انقطعوا للعبآة فف الزوافا والتكآفا وسفطر بعضهم على الأسواق ومشفآآ الآرف وآدعوا الانآدار من السلآة النبوفة وآعتقدهم الناس فآلط هؤلاء الناس بفن التدفن والآزعبآل التي فعود بعضها إلى العهد الوثنفة.

5 - عف آآمد، مرجع سآفق ص 184.

6 - الصوففة والسفاسفة، مرجع سآفق، ص70.

2. فئة المتصوفين الاجتماعيين وهم أتباع الطرق الصوفية ومريدوها ونشاطها الذين كانوا يجردون في حلقات الذكر والرقصات والأناشيد متنفسا عن كروبهم اليومية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها؛ فهربوا من ضيق دنياهم إلى رحابة دينهم.

3. فئة المنتسبين، وهم فئة من الدمشقيين ومن الغرباء لها مصادر معيشة ثابتة من وظائف حكومية مدنية أو عسكرية أو من عقاراتها الفلاحية أو من تجارتها أو من مكانتها العشائرية؛ لكنها انتسبت إلى هذه الطريقة الصوفية أو تلك ودعمتها بالمال عينا ونقدا خاصة في مناسباتها ومواسمها تزلفا وتملقا، وطلبا لدعم هذه الطرق لها عند الناس، الذين ينخرط عديد هم في هذه الطريق أو تلك سواء كانوا تابعين أو مريدين.<sup>7</sup>

وهكذا يمكن القول أن الطرق الصوفية كانت في واقع الحال جمعيات مجتمع مدني ديني بإمكانها أن تحرك المجتمع، وقتما تشاء وكيفما تشاء، مما جعلها دائما تحت أعين الدولة التي أحكمت عليها قبضتها وجعلتها امتدادا سياسيا وعقائديا واستخباراتيا لها.

وقد ارتبطت الصوفية في بلاد الشام بمن حملوها معهم من مناطق أخرى، فارتبطت الطريقة الشاذلية مثلا بهجرة الجزائريين إليها في القرن التاسع عشر بقيادة الأمير عبد القادر وكان للمهاجرين المغاربة دور أساسي في نشر الطريقة الشاذلية في سورية وفي دمشق أولا.<sup>8</sup>

وهنا يكمن السؤال الذي تهرب منه الباحثون: لماذا أثر المغاربة عموما والجزائريون خصوصا كل هذا التأثير في حركة التصوف في سورية بدءا من دمشق؟ لا أحد يريد البحث لأن الكل يتهربون من الإجابة التي يعرفونها فهذا التأثير يدل على واقع الترابط القومي والشعور بوحدة الثقافة والمصير؛ فالتصوف في بلاد المغرب العربي يتصف بصفتين أو سمتين أساسيتين رغم بعض الانحرافات هنا وهناك:

**أولاهما:** أنه صاحب تاريخ نضالي ضد الظلم والطغيان المحلي والإحتلال الأجنبي فالشيخ عبد الكريم المغيلي في منطقة توات جنوب غربي الجزائر، هو الذي تصدى لمحاولة التغلغل الأوروبي - اليهودي إلى غرب وأواسط إفريقيا عام 1492 وكان شيوخ الطرق : الجزائولية والقادرية والتيجانية والشاذلية والسنوسية

7 - العسكري، عبود عبد الله (2006). تاريخ التصوف في سورية : النشأة والتطور الزمان والمكان. ط1، ص 112، دمشق.

8 - محمد، رضا قهوجي، العلامة الهاشمي مربي السالكين، النسخة التي بين يدي أهداني إياها مشكورا الشيخ محمد أبي الهدى البيعقوبي، وهي غفل من اسم المؤلف وراء على غلاف الكتاب الخارجي أو الداخلي، لكن محمد عبد الله الجزائري كاتب المقدمة ينه إلى نفسه وإلى محمد رضا بشير القهوجي في الوقت عينه في صيغة تلبسه لاتبين أنه تأليف مشترك، فائرت استعمال اسم القهوجي دمشق 2004 دون ذكر الناشر وقد أشارت بعض المواقع على الانترنت أنه من نشر دار النمير في دمشق فراجعت هذه الدار فلم تعرف الكتاب، ص 157.

بالمرصاء لأوروبا وحرركاتها الاستعمارية منذ القرن لآماس عشر الميلادي، بل أن هذه الطرق هي التي نشرت الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء وليس الدولة العثمانية ولا دولة المماليك والطوائف قبلها وهذه الطرق الصوفية هي (التي جعلت من القرن التاسع عشر كاملا حقبة من الجهاد المتواصل، في محاولة لأحباط الموجة الإستعمارية الثانية)<sup>9</sup>.

وإذا كانت الزاوية القادرية برآسة محي الدين بن المصطفى هي التي كانت تقود نضالا سلميا ضد الحكم العثماني في الجزائر، فإنها هي التي قادت المقاومة الشعبية الجزائرية ضد الغزو الفرنسي.

والزاوية التيجانية في تونس هي التي تصدت لزيادة الضرائب عام 1863 وقامت بثورة بزعامة "الشيخ علي بن غذاهم". ثم ترسخت في مطالع القرن العشرين بهجرة أهالي تلمسان بقيادة "الشيخ محمد بن يلس". وهذه المسألة غير مدروسة جيدا لا في تاريخ الجزائر ولا في تاريخ الشام، وهو تقصير أراه فظيعة، وغير مبرر، فقد ارتبطت القادرية (وهي طريقة الأمير عبد القادر) والشاذلية في الجزائر، بمكافحة الإحتلال الأجنبي، فبانت وكأنها امتداد لمقاومة العرب المسلمين في اسبانيا من جهة وامتداد للدول الإسلامية في المغرب العربي من مرابطين وموحدين، وحين وصل هؤلاء المهاجرون الجزائريون وطريقتهم الشاذلية إلى دمشق كانت الذكرى الطيبة للمتصوفين المغاربة وخاصة محي الدين بن عربي وبومدين شعيب لا تزال على شفاه الشوام. فقد كان للمغرب العربي تأثيره الديني الكبير على المشرق العربي.

وفي هذه النقطة بالذات لا بد من الإشارة إلى أن بعض الطرق الصوفية لم تقف الموقف نفسه ضد الإحتلال كما ضد الظلم والاضطهاد المحلي، فبعضها وقف جنب الإحتلال، وبعضها تقلب في مواقفه، وبعضها انشق عن بعضه. لكن السمة الغالبة لحرركات التصوف في الجزائر وعموم المغرب العربي كانت حتى القرن التاسع عشر مواقف جهادية ضد الأجنبي ومواقف رافضة للظلم والاضطهاد.

ثانيهما : هذه السمات فهي أن الطرق الصوفية في المغرب العربي كانت طرقا إنتاجية تعتمد على نفسها وتعلم مريديها وأتباعها الاعتماد على النفس في الزراعة والتجارة والصناعة، فالتيجانية ومنافستها القادرية كانتا تعتمدان على التجارة بين المغرب العربي وإفريقيا جنوب الصحراء وذلك عبر مراكزهما في بوسمعون وعين ماضي وتماسين وفاس وغدامس وجات وتوات وإيجيل واعتمدت الطريقة السنوسية العمل التطوعي الشعبي وكان يوم الخميس هو عمل تطوعي جماعي بأرض الزاوية التي تهتم أيضا بتربية المواشي التي كان لها نظام هندسي اقتصادي يشمل المتاجر والحرف إضافة إلى المدرسة والمسجد.. وأي دارس لنظام

9 - علي، حسين عمار. مرجع سابق، ص 180.

الزوايا في المغرب العربي يجد أنها بنيت على مواقع استراتيجية زراعية وصناعية وعسكرية وسياسية. بل إن الزاوية لعبت دورا في نقل المجتمع البدوي نحو التمدين حيث استقرت القبيلة حول الزاوية وهكذا نجد اليوم في الجزائر على وجه الخصوص أن العروش تقوم حول تلك الزوايا، فلكل عرش زاويته ولكل زاوية عرشها. وبالتالي فإن الزاوية مقر الطريقة الصوفية تعتد على المجتمع وليس على الدولة، وهي مسؤولة عن هذا العرش أمام الله والمجتمع وليس أمام الدولة.

طبعاً لا يتفق هذا الاعتماد على النفس وأسلوب الاكتفاء الذاتي مع السياسة الذين سيطروا على الوطن العربي من ترك وأوروبيين وأنظمة مصنوعة على المقاس الأوروبي، الذين يريدون من العربي والمسلم أن يكون مستهلكاً لا منتجاً، لا يعمل لدينه كأنه يعيش أبداً، بل يعمل فقط لأخرته كأنه يموت غداً، لذلك سعت هذه القوى لأن تعتمد الزوايا والطرق الصوفية جميعاً عليها، وقد نجح الساسة في ذلك كثيراً. وإن وجدنا في الجزائر خلال القرن العشرين أن شخصية مثل عبد الحميد بن باديس يحاول الاستفادة من تجربة التاريخ الصوفي في نضاله الديني ضد الاستعمار الاستيطاني فيقيم المدارس والمساجد معتمداً على الشعب نفسه وليس على إعانات الدولة الاستعمارية. وحافظ على مسافة بينه وبين الطرق الصوفية خاصة منها المخترقة من طرف السلطة الإستعمارية. لقد كان ابن باديس واعياً للفكر الإسلامي وآلياته الاجتماعية بما فيها التصوف وواعياً لمتطلبات معركة المواجهة مع الاستعمار من إعداد جيل ممتلئ بوطنيته وثقافته ودينه وعصره.

## 5 - دور أهل المغرب العربي في تصوف الشام

هذه السمعة النضالية للتصوف في الجزائر والمغرب العربي هي التي حملها المتصوفون الجزائريون إلى بلاد الشام في القرنين التاسع عشر والعشرين، فاستقبلوا استقبالاً كبيراً حيث أحيوا ذكريات النضال في القرون الخوالي، إذ يعرف الدارسين لتاريخ المغرب العربي مع المشرق حقيقة سعى ويسعى مثقفو الاستعمار إلى طمسها، وهي أن أهل المغرب العربي (بربرهم وعربهم) أصحاب هوى شامي واضح، فإن تنصر أهل الشام تنصروا وإن تعرب أهل الشام تعربوا، فهم في حالة حنين وشوق دائم للشام منذ العصور التاريخية الكنعانية الفينيقية الأولى. أي منذ أن أخرجهم داوود الملك منها حين قتل قائده طالوت ملكهم جالوت وانتقلوا إلى شمال إفريقيا ولم يملكو عليهم أحداً منذ ذلك الوقت، فهؤلاء الكنعانيون الذين تسميهم الأدبيات العربية العماليق سكنوا فلسطين، وهم الذين بنوا القدس حيث أن هذه القدس حسب علماء الآثار والأثرولوجيا

ليست أورسالم أو أورشليم التي يدعيها اليهود، ويقولون أن معبدهم فيها. فالقدس مدينة كنعانية بناها هؤلاء الكنعانيون البربر حوالي عام 3000 ق م، فقد كان البربر الكنعانيون الفينيقيون هم أهل فلسطين وأصحابها وكانت لهم مملكتهم بقيادة جالوت الذي تغلب عليه طالوت لحساب الملك - النبي داود فأجلاهم عن مدينهم ييوس التي هي القدس<sup>10</sup>. ووصلوا بقيادة أفريقش بن صيفي عبر مصر إلى بلاد المغرب التي سميت افريقية، وقد أسر البربر هذه الفعلة لليهود.

فما أن تولى الفرعون البربري (شيشنق) السلطة في مصر، حتى استفاد من انقسام مملكة سليمان، فهاجها وهدم المعبد الذي بنوه في القدس، واستولى على كل ما فيه، وقتل رحب عام ابن الملك النبي سليمان الذي أنجبه داود كما تقول التوراة من التي كانت لأوريا الحثي<sup>11</sup>، ولم يقف شيشنق عند قتل الحفيد رحب عام بل هدم المعبد واستولى على كل ما فيه كما تقول التوراة<sup>12</sup>. في محاولة واضحة لاستئصال شأفة اليهودية بل انه وحد مصر والمغرب مع الشام والجزيرة العربية تحت عرشه.

وفي التاريخ العربي الإسلامي سر البربر حديث الدين الإسلامي عن القدس واعتبارها قبة الإسلام الأولى فذهب وفد منهم إلى الرسول الكريم، وفي عهد معاوية سرهم جدا أن تكون القدس هي مدينة البيعة للأمويين ففي عام 40هـ/661 م، أخذ معاوية بن أبي سفيان فيها البيعة ثم اختار دمشق عاصمة لخلافته، وكرر المسألة سنة 72هـ/691 م سليمان بن عبد الملك وأخذ البيعة فيها، وبنى بالقرب منها في الرملة قصره الشهير، وهكذا فالقدس وسائر الشام هي موطن الهوى القومي للبربر المغاربة عبر العصور والدهور مختلطا بالهوى الديني. وظلت القدس والشام كله هدفا لكل الرحالة المغاربة فهي دائما موجودة في كتاباتهم وكتبهم كما نرى ذلك عند ابن بطوطة في كتابه الأشهر، والمقري في كتابه (نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب) وابن مرزوق التلمساني في مخطوطه (عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمعت من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز) وغيرهما كثير ويلاحظ المرء وهو يقرأ التاريخ الديني للمشرق العربي، تأثيرا كبيرا لرجال الدين المغاربة على المشاركة، مما حدا بعضهم إلى القول: "المشرق ارض الأنبياء والمغرب أرض الأولياء". وتعني كلمة مغربي لدى المشاركة رجلا صادقا في دينه، حاذقا في دنياه، شجاعا في

10 - أحمد، سوسة (1985). العرب واليهود في التاريخ. وزارة الإعلام، ط 5، ص 127، بغداد.

11 - الكتاب المقدس. العهد القديم، سفر الملوك الأول، الإصحاح 14، الآيات 28-25. ولفائدة القارئ الجزائري نقول أن عنوان "الكتاب المقدس" تعني أنه يضم أسفار التوراة الخمسة التي تعترف بها الديانة المسيحية زائد كل الأناجيل باسئثناء ما يعرف بإنجيل برنابا.

12 - المرجع نفسه، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح 6، الآيات 10-12.

جهاده، صعبا في مزاجه. وتتجلى هذه النظرة أكثر في الأمثلة الشعبية المشرقية التي تتناول المغربي ونظرتهم إليه، والمغرب في نظر المشاركة هو ذلك الذي يشمل ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وشنقيط، وتشكل هذه النظرة ثقافة متكاملة اعتقد أنها بحاجة إلى دراسة تاريخية - اجتماعية عميقة من طرف الباحثين في المشرق والمغرب على حد سواء.

لما لها من قيمة في الهوية الوطنية القومية الدينية والثقافية للطرفين المغربي والمشرقي وبالمقابل فإن البربر المغاربة نظروا دائما إلى المشرق العربي باعتباره الأصل، وهي نظرة تتفق تماما مع نظرة الحضارات المتوسطة كلها من أوربية وغير أوربية والقائلة بان لكل إنسان وطنان، الشام وطنه الأول.

لذلك ما أن طلب صلاح الدين الأيوبي معونة أمير المؤمنين أبو يعقوب المنصور الموحي حتى كانت فرصة للناس لأن يستجيبوا للنداء ويصنعوا مرة أخرى في المشرق تاريخنا نضاليا مجيدا فقد جهز المنصور أسطولا بحريا كبيرا لمنازلة الجيوش الصليبية في المشرق، بالضبط كما طلب صلاح الدين الذي اهتم بالمعركة البرية وحسم الحرب.

وهنا علي أن أعرب عن اعتقادي بأن الفكر الإسلامي يعرف أزهى حقباته حين يمتزج بهموم الناس السياسية والاجتماعية. وفي تجربة الوطن العربي التاريخية نجد انه حين عبر المتصوفة عن الناس والتصقوا بهم وقادوهم في النضال ضد الظلم أقاموا أهم وأزهى عصور المغرب العربي سياسيا واجتماعيا، وحين قاوموا الاحتلال الأجنبي بقيادة الأمير عبد القادر صاروا نموذجا يحتذى لدى شعوب العالم كلهم حتى غير المسلمة، وفي مصر حين التصقوا بهموم الناس في زمن رئيسها جمال عبد الناصر عاشوا أزهى عصورهم فيها، حتى أن عبد الناصر كرر أسلوب الظاهر بيبرس وكان لديه صديق صوفي منهم يبته همومه ولواعجه الشخصية.

## 6 - أهل تلمسان في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية

أسكن الناصر صلاح الدين الأيوبي أعداداً من أهل المغرب العربي في بيت المقدس بعد انتصار المسلمين في معركتي حطين وفتح بيت المقدس، في مساكن بجانب الحائط الغربي للمسجد الأقصى المعروف بحائط البراق. وحين سئل صلاح الدين من قبل حاشيته عن سبب إسكان المغاربة بهذه المنطقة، أي عند السور الغربي للمسجد الأقصى، وهي منطقة سهلة يمكن أن يعود منها الصليبيون مجدداً، أجاب بقوله: "أسكنت هناك من يثبتون في البر، ويبطشون في البحر، من أستاذتهم على هذا المسجد العظيم". ومشى ابنه الأفضل نور الدين خطوة أخرى في هذه السياسة حين أوقف قرية "عين كارم" الشهيرة بمياهها وأشجارها غربي القدس التي تقوم عليها اليوم الجامعة العبرية، وقرية "إيوان" التي تقع



داآل المآنة العآفة آف آها شرقا آائ البراق. وكان من هؤلاء المآهآفن الصوفف أبو مآفن<sup>13</sup> شعفب الالف ذراعها الالف قآعآ أثناء قآال الصلفففف قرب آائ البراق، وأقام بآانب البراق مآرسة، وأوقف سآنا للقامفن من المغرب العربف، وهآذا نشأآ آارة المآرابة كوقف منذ 583هـ/1187م، وقد سآل هذا الوقف رسمفا آسب الأصول الشرعفة وأعفد آآوفن وصفة الوقف عدة مرات وأقدم نسخة مآودة منها الآن آعود إلى العام 666هـ/1267م. وقد أنشأ آاآ آففاآ بومآفن شعفب فف 29 رمضان عام 720هـ الموافق 3 نوفمبر آشرفن آانف 1320م أوقافا وزاوفة أسمفآ باسم بومآفن شعفب الآآ<sup>14</sup>.

وهآذا آوسعآ آارة المآرابة وامتآآ مساحة آمسة وأربعفن ألف هآآار ابتداء من آائ البراق، وفف الوآائآ أن شآصفاآ من تلمسان آضرت إلى القدس الشريف بقاءة مآمآ العشعاشف عام 1952 فف مسعى للآفاظ على هذه الآارة وأوقافها. وآرت عدة مآاولآ فف هذا الشأن سواء قبل اسآقلال الآزائر أو بعآه، وآآرقت إلى هذا الموضوع فف موقع آآر. لكن الالف فمفنف أن أآلص إلىه أن بومآفن شعفب آشن فف الشام بآءا من القدس الالف كانت آآب الآكم الأوفف فف مآشق، الصوففة المآهآة المآاومة للآزو الأآنفف. فأآر كآفرا فف عقول الناس ووفآاناآهم. ولا فزال كفاح العرب، المسلمفن آض الآآلال الأآنفف بقاءة صلاآ الالف زهوه وبعآه الالفف مرفآا للمناضلفن آض الصهفوففة والإسآعمار من عرب ومسلمفن فف أنحاء العالم.

ولم فآوقف آأفر التلمسانفن المآصوففن فف الشام عآآ أبو مآفن شعفب فقآ آاء بعآه آآرون ومفنف : العففف التلمسانف والشاب الظرفف وآآرفن.

#### أ - العففف التلمسانف

فآلآ بعض الناس بفن العففف التلمسانف الأب وبفن ولآه مآمآ فكلاهما صوفف وفقفه. وأما الأب فهو تلمفآ مآشر لفن عربف واعآنآ مآهبه الصوفف مآآر علىه العآفآ من آهم والمآاكل، وهو الالف ذكره الآافظ بن كآفر "أبو الربفب سلفمان بن عفف بن عبآ الله العابآف الكرملف -الأصآ الكومف - ثم التلمسانف (610 - 690هـ) الشاعر المآقن المآقن فف علوم، منها: النآو، والأآب، والفقه، والأصول، وله فف ذلك مصنفآ، وله شرح مواقف النُّفرفف، وشرح أسماء الله الآسنف، وله آفوان مشهور، وقد نسب هذا الرجل إلى عظامف فف الأقوال والاعآقآ فف الآلول والآآآ والزنآة والكفر الآض".

13 - هو أبو مآفن شعفب بن الآسن الفف الأناصرف الأناصلف الأصل. ولآ بآشلففة بالأنآلس سنة 509 للهآرة، وآعلم فف فانس، وإسآقر فف بآابة مآة مآآرة فف آفاه، ومآآ ودفن فف تلمسان.

14 - الموسوعة الفللسطفنفة، القسم الأول، آ2، ص378.

ويقول عنه علي أحمد في كتابه "الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام": "عفيف الدين سليمان التلمساني المتوفى سنة 690هـ/1291م الذي التقى بالقاهرة بأبرز تلامذة ابن عربي.... وقد تتلمذ التلمساني على ابن عربي بعد أن وصل إلى دمشق ويبدو انه كان من المتعمقين بمذهب أستاذه بدليل انه شرح عدة مؤلفات له، إضافة إلى ذلك فقد كان من الشخصيات المعروفة بدمشق على هذا الصعيد..."<sup>15</sup>

ويبدو أن العفيف التلمساني الأب هذا، كان قد جال عدة بلدان في أوروبا وفي المغرب وعاش فترة في مصر ثم انتقل إلى دمشق، وله كتب وجد بعضها في مكتبة الظاهرية بدمشق التي أسسها الشيخ طاهر الجزائري بعد خروج الأتراك منها في القرن العشرين الميلادي.

وقد اتهم ابن تيمية، عفيف الدين التلمساني بالزندقة والإلحاد تماما، كما اتهم ابن عربي أستاذ التلمساني بتهم مماثلة لأنه يقول بوحدة الوجود والحلول وهو ما ينكره ابن تيمية، والملاحظة التي يجب إيرادها هنا بل دراستها أن المواطنين العاديين الشوام لم يعبأوا كثيرا بكلام ابن تيمية عن ابن عربي، والعفيف التلمساني رغم سطوة وتأثير ابن تيمية في الفقهاء، وزاد هؤلاء من تبجيلهم لابن عربي حيث دفنوه في قاسيون قريبا من مرقد النبي ذي الكفل، وأطلقوا على المنطقة اسم الشيخ محي الدين.. ثم ردفنوا تلميذه العفيف بالقرب منها، وأطلقوا عليها اسم العفيف ولا يزال الاسم يطلق حتى الآن، حيث يوجد جامع العفيف أيضا، ولصديقنا المفكر الإسلامي الكبير المرحوم مولود قاسم حكايات كان يرويها لنا حين كان يزور دمشق زمن الثورة، ويזור قبر الأمير عبد القادر في مقام ابن عربي أثناء الثورة، وهي الزيارات التي ألهمته فكرة نقل رفات الأمير عبد القادر التي اقترحها على الرئيس احمد بن بلة حين كان مستشاره، ونفذت في عهد الرئيس هواري بومدين عام 1966، رغم أن فكرة نقل رفات الأمير عبد القادر إلى الجزائر راودت المحتلين الفرنسيين قبل ذلك بعقود.

#### ب- الشاب الظريف

أما الشاب الظريف فهو العفيف الابن واسمه محمد ويلقب بشمس الدين ولم يكن ليخرج عن طريقة والده في كل شيء تقريبا كالتصوف والشعر والعمل في الإدارة، وكأنه صورة طبق الأصل عنه، وإن كان لم يصل إلى مستوى والده في التبحر في مذهب ابن عربي، عندما وافته المنية وهو ابن ثلاثين عاما ودليل ذلك أنه لم يوصف بالأوصاف التي وصف بها والده كالزندقة وغير ذلك<sup>16</sup>. ويبدو أنه كان اشعر من والده وكان صاحب نكتة وظرافة ولهذا عرف بالشاب الظريف

15 - علي، أحمد. مرجع سابق ص 178.

16 - المرجع نفسه، ص 179.

محمد العفيف، وقد وجدت له ديوانا في مكتبة الظاهرية السالف ذكرها صورته وقدمت نسخة منه لأحد الباحثين الجزائريين عله يرى فيه شيئا. وظل المغاربة وبخاصة التلمسانيين منهم يلعبون دورا في الحياة الإدارية والثقافية الدينية في بلاد الشام كما في مصر. وإن تراجع هذا الدور في العهد العثماني. ولكننا فجأة نرى هذا الدور الديني للجزائريين يتعاظم في الشام خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ليبرز في النصف الأول من القرن العشرين دور التلمسانيين منهم.

## 7- الدور الصوفي للعائلات الجزائرية المهاجرة إلى الشام في القرن التاسع عشر

إن دور المهاجرين الجزائريين منذ 1847 في الحياة الصوفية في دمشق وسائر بلاد الشام كان دورا كبيرا ورأينا في بحوث سابقة<sup>17</sup> أن العائلات المهاجرة إلى بلاد الشام كانت على رأس حركة الفكر القومي العربي الإسلامي، وكان من رموزها الشيخ طاهر الجزائري وابن أخيه سليم الجزائري، كما رأينا دورهم في التعليم الذي برزت فيه عائلتا المبارك والهاشمي.

كما برزت عائلات جزائرية أخرى في حركة التصوف الديني سواء كانت هجرتها من منطقتي بجاية وتيزي وزو وما حولهما أو من منطقة الغرب الجزائري من وهران وتلمسان وما حولهما. ومن المعروف أن المهاجرين الجزائريين عام 1847 كانوا في معظمهم من أتباع الطريقة الشاذلية القادرية ومنهم الأمير عبد القادر والطريقة الشاذلية البكرية الخلوتية التي يرأسها شيخ الزاوية الرحمانية المهدي السكلاوي وكان من أتباعه فيها الشيخ المبارك من دلس، وأحمد الطيب بن سالم خليفة الأمير في منطقة حمزة (البويرة) التي كانت قاعدة للمجاهدين في منطقة الزاوية التي تضم ما يعرف اليوم بتيزي وزو وبجاية.

وقد قام هؤلاء بدور ثقافي وديني في الشام امتد لشملة حالة من النهوض السياسي وقيادة حركة الفكر القومي العربي في وجه الاستعباد الطوراني ونوايا الدول الأوروبية الكبرى لاستعمار المنطقة وزرع الفتنة بين النصارى والمسلمين. وقد بدأ دور المهاجرين الجزائريين الصوفي والتعليمي في الشام على يد محمد المهدي السكلاوي الذي اتخذ مجلسه في حارة الخضرية وبدأ التدريس فيه. وكان مريدوه من علية القوم بدءا من والي الشام المشير أحمد عزة الذي تنبأ له السكلاوي بالشهادة وكان ذلك حيث مسح به العثمانيون السكين واتهموه بالتقاعس عن إخماد فتنة 1860 وشنقوه وهو صائم.

17 - أنظر كتابنا، إشعاع المغرب على المشرق. دور المهجرين الجزائريين في بلاد الشام، دار الأمة، 2001.

## - الأمير عبد القادر وعائلته

لعب الأمير عبد القادر دورا تصوفيا كبيرا في بلاد الشام بعد وصوله دمشق في 1856، والكل يعلم أن حياة الأمير عبد القادر بدأت دينية تصوفية في زاوية والده بالقيطنة الذي لم يكن يعده لا للسياسة ولا للقتال، ولكن الأقدار شاءت غير ذلك. ويبدو أن تصوف الأمير عبد القادر قد بدأ رسميا من المشرق أو انه استغرق فيه تعبدا وتقية، إذ يتحدث جواد المرابط في كتابه "التصوف والأمير عبد القادر" أن: "تصوف الأمير مر بمراحل ثلاث كانت أولاها في بغداد حين زار مع والده قبر عبد القادر الجيلا ني وأخذ الإجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الأشراف. والمرحلة الثانية في سجن امبواز التي حولها الأمير بقوته النفسية والدينية وصره واحتماله إلى خلوة صوفية انتهى بها إلى الأفق الروحاني بوقدة الإضطراب والشوق. أما المرحلة الثالثة فهي، عندما سافر حاجا سنة 1279 هـ حيث أقام في مكة سنة ونصف مقبلا على العبادة وحيث التقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية وتلمذ عليه..."<sup>18</sup>.

ومعروف أن الأمير عبد القادر أسهم جديا في إدخال الطريقة الشاذلية الإشرطية إلى عكا بفلسطين حين توسط لدى الباب العالي أن يكون منفي شيخ هذه الطريقة من تونس إلى عكا وقد نجح بذلك ودخلت الشاذلية الإشرطية فلسطين فعلا. بل تقول فاطمة الإشرطية أن علاقة مصاهرة كانت تربط عائلاتها وعائلة الأمير (وكانت أختي السيدة عائشة زوجة للأمير مصطفى الحسني شقيق الأمير عبد القادر).<sup>19</sup>

ورغم أن كتبا كثيرة عربية وغير عربية تحدثت عن تصوف الأمير عبد القادر وانخراطه في الطريقة الشاذلية القادرية وغيرها من الطرق، إلا أننا رأينا في مثل هذا الزمان، خاصة في هذه الأيام التي تتبادل فيها السلفية المتطرفة والصوفية المستهضة بإمكانيات فئة بعض السياسيين، وبعضا من عائلة الأمير ينفون عنه التصوف. وذهبت بديعة الحسني بعيدا جدا في تشويه تاريخه واتهمت هنري تشرشل بالكذب في تاريخه<sup>20</sup>، كما أنها سفهت كتاب ولده محمد عنه.<sup>21</sup> بل أنها نفت أن يكون كتاب المواقف من تأليف الأمير، ولست أدري ماذا ستفعل بأشعار الأمير الصوفية. هل ستقول أنها وضعت عليه ونسبت إليه. فيتحول هذا الأمير ومعه تاريخ الجزائر والكفاح القومي العربي والجهاد الوطني الإسلامي إلى كذبة كبرى ابتلعناها جيلا بعد جيل طوال القرنين الماضيين. وقامت عائلة الأمير في

18 - جواد، المرابط، التصوف والأمير عبد القادر الحسني، دمشق دار البقطة، 1966، ص 28.

19 - فاطمة، الحسنية الإشرطية. مصدر سابق، ص148.

20 - انظر كتاب بديعة الحسني ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير لهنري تشرشل.

21 - انظر كتاب بديعة الحسني دراسة لكتاب تحفة الزائر.

دمشق برفع دعاوى ضدها وتقول أنها ليست من عائلة الأمير ولا من سلالته ولا من سلالة إخوانه. وبديعة محسوبة على السلفيين وتوجهاتهم.

وفي اعتقادي بان التشكيك في صوفية الأمير عبد القادر هي جزء من عمل سياسي منظم في هذه الأيام غايته إبعاد الصوفية التي يراد تجديدها عن النضال القومي والجهاد الديني بإبعاد رموزها ومجاهديها الذين ابلوا أحسن البلاء في الدفاع عن القومية العربية والدين الإسلامي، بالعمل قبل القول وفي طليعة هؤلاء الأمير عبد القادر الذي يحدد بنفسه في (المواقف) الطريق الذي وصل عبره إلى المطلق إذ يقول في المواقف (وكنتم ممن رحمة الله تعالى، وعرفه بنفسه وبحقيقة العالم على طريقة الجذبة لا عن طريق السلوك...) <sup>22</sup>

ولعل ما أورده الأمير في المواقف عن موضوعات حيرة الوجدان كما هي عند ابن الفارض، وحيرة العقل كما هي عند ابن عربي والرازي وأحواله في هاتين الحيرتين، هو كلام يصعب على صاحبه أن ينسبه إلى غيره، فلحيرة هي الدرجة السادسة من التصوف حيث تليها درجة الفقر والفناء في المطلق ولا اعتقد أن أحدا غير من عاش هذه الحيرة يستطيع الكتابة فيها وعنهما، فكيف له وهو على هذه الدرجة من التصوف والفكر أن ينسب حاله ومقاله لغيره لقد كان الأمير عبد القادر متصوفا ما في ذلك من شك، لكنه لم يكن مغرقا فيه سواء في الجزائر أو في تركيا أو خلال سنواته الأولى في دمشق إلى أن اضطر لاستخدامه ككتيبة من القوى العثمانية والأوروبية التي أخذت تشدد رقابتها عليه خوفا من مشروعه القومي العربي الذي ظهرت علاماته عام 1860.

ولعل تظاهر الأمير بالإغراق في التصوف لم يكن إلا جزءا من الخطة التي رسمها لنفسه لمواجهة الضغوط عليه... <sup>23</sup>

وهناك عدد من أفراد عائلة الأمير خاصة من إخوانه وأولادهم ممن عرفوا بالتصوف مثل أخيه السعيد وولديه مرتضى وعبد الباقي، وأخيه احمد الذي كان مولعا بالتصوف وكان من أتباع الطريقة الشاذلية القادرية (وقد جلس للتدريس في داره ثم في جامع العناية الذي كان يقع في باب السريجة، وكان احمد يعتبر من العلماء الزهاد، ومهتما بالحديث الشريف...) <sup>24</sup>.

وكثير منهم ممن نجد ترجماتهم عند الحصني في منتخبات التواريخ لدمشق والحافظ في تاريخ علماء دمشق وعند خلدون مكّي حفيد عبد الباقي بن السعيد الذي ذكرنا.

22 - عبد الله، عبود العسكري. مصدر سابق ص78.

23 - أبو القاسم، سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرو الإسلامي، ج 5، ص550.

24 - المرجع نفسه ص527.

## - عائلات وأعلام أخرى

وليست عائلة الأمير وحدها من الجزائريين التي أسهمت خلال القرن التاسع عشر والعشرين في المشهد الصوفي في بلاد الشام. فهناك متصوفون آخرون، فنجد في دمشق مقدم الطريقة الخلوتية الرحمانية محمد المهدي السكلاوي الذي يترجمه صاحب حلية البشر ويقول عنه شيخ الطريقة " ...أنه معدن السلوك والحقيقة، صاحب الفيوضات الإلهية والكشوفات الربانية، العارف بالله والمقبل لكليته على مولاه، المرشد الإمام والمسلك الهمام. واستقام في حارة الخضيرية، وكان يقيم الأذكار ويسلك المريدين.<sup>25</sup>

وكذلك آل المبارك وأشهرهم في التصوف الشيخ الطيب المبارك الذي اعتقده الناس ونجد في فلسطين ما يشبه التسلسل الزمني لدخول التصوف من المغرب العربي- في ستينيات القرن التاسع عشر نجد دخول الشاذلية اليسرطية إلى مدينة عكا، تلك المدينة التي كان الأمير عبد القادر الجزائري قد اختارها لمنفاه من خياراته الثلاثة بعد مكة والإسكندرية، وهناك أقوال عن سبب وصول الشيخ علي نور الدين اليسرطي إلى فلسطين، فالبعض يقول أن والده كان قائدا كبيرا في الجيش التونسي، وحاول الاستيلاء على السلطة وفشل فتوسط الأمير عبد القادر لنفيه إلى عكا، والبعض يقول إنها الصدفة فقط فقد كان الرجل في الحج ثم قصد زيارة القدس عن طريق ميناء يافا فتعرض مركبه إلى أنواء. فطلع إلى عكا وكان قد مرض لشدة ما أصابه من الأهوال والعناء فذهب منها إلى ترشيحا لتبديل الهواء<sup>26</sup>. لكن فاطمة اليسرطية وهي ابنة علي المذكور توحى بأن عكا كانت منفي للسياسيين الذين تغضب عليهم السلطة العثمانية لأنها مركز امني عسكري كبير وبالتالي فهي تضم كثيرا من كبار القوم المبعدين.

وكانت عكا في ذلك العهد مركز القيادة العليا للجيش التركي في سائر أنحاء فلسطين ترابط فيها فرق كاملة العدة والعدد ويسكنها كثير من أمراء الجيش وقواده وضباطه وعائلاتهم، وكثير من الحكام المدنيين الذين يتولون إدارة الأحكام المدنيين، كما كانت من البلاد التي يرسل إليها المبعدون السياسيون من الأستانة وكافة البلاد الخاضعة للحكم العثماني، فكان منهم العظماء والكبراء والوزراء والعلماء الأعلام ومشاهير الأدباء<sup>27</sup>.

ومع أنني لا اعتقد بان رجل دين صوفي يختار مدينة هذه أوصافها مكانا لدعوته إلا إذا كان ذلك من باب الخيار الوحيد. ويبدو أن علي نور الدين اليسرطي لم يستكن في عكا سواء كان منفيا إليها أو ساقته لها الأقدار وظل يجهر بالعداء

25 - عبد الرزاق، البيطار (1992). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ط2، ج3، ص 1326، بيروت.

26 - المصدر نفسه، ص1065.

27 - فاطمة، الحسنية اليسرطية، مرجع سابق ص148.

للدولة العثمانية فنفته إلى قبرص (ولم يزل بها ثلاثة أعوام إلى أن تداخل في إحضاره الأمير عبد القادر الجزائري فاستجلبه إلى الشام)<sup>28</sup>.

وكان ذلك في حدود سنة 128هـ أيام ولاية رشدي الشرواني، لكن ما إن استبدل ذلك الوالي حتى رجع اليشرطي إلى موقفه المضاد من العثمانية فاستحضره الوالي الجديد إلى الشام مع نحو عشرين من جماعته أتوا أمورا مذمومة ومعتقدات مشؤومة وأراد نفيه إلى فزان.

فبذل الأمير عبد القادر رجاء لحضرة الوالي المرقوم أن يجعله محبوسا في داره وأن يسمح عن نفيه رحمة لذله وانكساره فحقق الوالي رجاءه لما له عنده من الفضل والجاه، أما جماعته فإنه نفاهم إلى فزان وأذاقهم الذل والهوان.<sup>29</sup>

لكن فاطمة اليشرطية تصوغ تداخل الأمير وتوسطه، صياغة أخرى إذ تقول انه بعد عودته من قبرص "ذهب إلى دمشق بدعوة من الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري المغربي ونزل ضيفا على ذلك الأمير الكريم"<sup>30</sup>.

وتكشف اليشرطية في هذا النص أن احد إخوان الأمير كان متزوجا من أختها عائشة وهو مالم يذكره أحد من الذين أرخوا لعائلة الأمير، ولكنها تكشف في هذا الكتاب عددا من أتباع اليشرطي في فلسطين فتورد إسم محمد الدلسي.<sup>31</sup> في مدينة صفد والإسم بهذه الصيغة يكون اسم كبير عائلة الدلسي في تلك المدينة والتي تحدثنا عن هجرتها بقيادة زعيمها احمد الطيب بن سالم خليفة الأمير في برج حمزة (البويرة اليوم).

ويبدو أن أساليب التهم التي تتبعها الدول العربية اليوم لمعارضيتها المتعلقة بوطنيتهم وشرفهم وسلوكهم هي أساليب متوارثة من العهد العثماني حيث يورد البيطار ان اليشرطي وجماعته، اتهموا بأنهم يقومون تحت غطاء التصوف والتدين بكل الموبقات حتى الزنا بالأمهات. ولكنه يؤكد انه ما علم عنه سوى ما يوجب الكمال "وحاصل الكلام في سيرة هذا المترجم المفضل فإنها اختلفت فيه أقوال الرجال، فمنهم من طعن به وزاد، ومنهم من برأه من كل ما يوجب الملام والفساد، وإن الحق يقال ما علمنا منه سوى ما يوجب الكمال"<sup>32</sup>.

وخلال قراءتي لكتاب اليشرطية عثرت في صفحة 198 على أنشودة أحفظها عن أمني عن أبيها تقول: "ياكوكب العصر يانور بارينا، لولاك لم يسر نور الهدى فينا قد كنت أهواها من قبل مجلاها، والقلب ناجاها في طور سينينا".

28 - عبد الرزاق، البيطار، مصدر سابق ص1066.

29 - فاطمة، الحسينية اليشرطية، مرجع سابق ونفس الصفحة.

30 - المرجع نفسه، ص 198.

31 - المرجع نفسه، ص 198.

32 - عبد الرزاق، البيطار، مصدر سابق ونفس الصفحة.



فإذا بهذه الأنشودة هي من أناشيد الطريقة الشاذلية اليسرطية وأوردتها المؤلفة بالكامل، واعتقد أن ذلك يعني إنها كانت منتشرة في صفوف الجزائريين المهاجرين، ونجد في أواخر القرن التاسع عشر متصوفا جزائريا من غربي الجزائر يدعى عبد الباقي الشعشاعي هاجر إلى المشرق، والتقى في مدينة نابلس بالشيخ اليسرطي وسلك في الطريقة، وقد مكث في نابلس وأنجب زوجته ابنة البكر محمد الذي عرف في الجزائر بسيدي الشيخ محمد النابلسي، ويبدو أن محمدا هذا ظل ينتقل بين فلسطين والجزائر حتى توفي في الجزائر عام 1927<sup>33</sup>.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين نجد الشيخ الهلالي عميمور يدخل الطريقة الشاذلية العليوية بعد زيارة قام بها إلى فلسطين في تلك المرحلة الشيخ احمد العليوي واخذ عميمور الطريقة على يديه<sup>34</sup> والشيخ الهلالي عميمور كان مجاهدا مع الحاج أمين الحسيني قائد النضال الوطني الفلسطيني وخاصة في لجنة القدس العربية، وكان منتقلا بين القدس وغزة.

#### - عائلة اليعقوبي

وأما في دمشق ومشهدا الصوفي فإننا نجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عائلة اليعقوبي، ومؤسس هذه العائلة في الشام هو محمد الحسن بن محمد العربي اليعقوبي، المهاجر من آيت سعادة في ولاية بجاية، ولا تزال هذه العائلة موجودة في ذات المنطقة. هاجر عام 1847 مع أحمد بن سالم، والمهدي السكلاوي ومحمد المبارك وغيرهم في الهجرة السياسية العربية الأولى في التاريخ المعاصر التي عرفت بـ(هجرة العلماء) وسكن في حي السويقة قرب باب المصلى، وكان علما عارفا، دفن في جبل قاسيون بجوار المقام المنسوب لنبى الله ذي الكفل<sup>35</sup>.

وقد برز من عائلة اليعقوبي في جانب التصوف عدة أسماء منها محمد مزبان بن محمد الحسن الذي توفي عام 1902 وكان علما زاهدا وكان نسابا علما بأنسب بيت النبوة وكان نقشبندي الطريقة. وأما محمد الشريف بن محمد الصديق بن محمد الحسن اليعقوبي فأخذ الطريقة الشاذلية عن خاله محمد المبارك الدلسي وخلفه في زاويته واخذ النقشبندية عن عمه محمد مزبان الذي اشرفنا إليه، وعرف عنه تأسيس المدارس في بيروت ودمشق وترأس الكلية الشرعية التي شارك في تأسيسها في بيروت إلى أن توفي. وهو قائد فرسان الجزائريين الذين تصدوا للجنرال غورو في معركة ميسلون 1920 تحت قيادة يوسف العظمة<sup>36</sup> كما برز

33 - العشايشي، مصطفى. السلسلة الذهبية بتعريف رجال الطريقة الهبرية الدراقية - عن الإنترنت.

34 - نفسه.

35 - مقابلة شخصية أجريتها مع الشيخ محمد أبي الهدى اليعقوبي في منزله بحي المهاجرين شارع خو رشيد بدمشق بتاريخ 2010.04.11.

36 - الفرور، محمد عبد اللطيف صالح (1986). صفحات مشرقات وظلال وارفات من حياة العلامة الكبير السيد الشريف الشيخ إبراهيم اليعقوبي، ط1، ص19، دمشق.

منهم أخوه اسماعيل. وأنجب اسماعيل ولده المعروف في دمشق الشيخ إبراهيم وأنجب إبراهيم محمد أبا الهدى... إلخ.

## 7 - تجدد دور التلمسانيين في التصوف في بلاد الشام خلال القرن العشرين الميلادي

لم يتوقف دور التلمسانيين في حركة التصوف ببلاد الشام عند القرون الوسطى حسب التصنيف الغربي للقرون التاريخية، بل نجده قد تجدد في القرون الحديثة والمعاصرة وخاصة في القرن العشرين حيث نجد شخصيات صوفية تلمسانية لها بالغ الأثر في هذه الحياة. ومن هذه الشخصيات: محمد بن يلس التلمساني، أحمد بن محمد بن يلس ومحمد الهاشمي التلمساني.

### أ- محمد بن يلس التلمساني

تعتبر عائلة بن يلس من العائلات العريقة في دمشق. وقد هاجرت عائلة بن يلس مع شيخها محمد إلى دمشق من تلمسان في أواخر عام 1911 للميلاد، واشتهرت منذ يومها الأول بالتصوف.

والشيخ بن يلس هو محمد بن شاوش (ويكتبها المشاركة شاويش وهي لفظة تركية تدل على مرتبة صف ضابط في الجيش العثماني وفي الحياة المدنية تدل على مرتبة رئيس مجموعة عمالية أو مراقب عمل) بن يلس ولد في الجزائر سنة 1847. وتظل حياة الشيخ بن يلس في الفترة 1847 - 1911 (غير معروفة لدينا...)<sup>37</sup>.

ونحن لا نعلم عنها الكثير، فقد فرطت النخبة الجزائرية. وهكذا فرضت النخبة الجزائرية في بعضها، ومن هؤلاء الذين فرطت بهم وبتاريخهم الشيخ محمد بن يلس، فضاعت الفترة الجزائرية من حياته وهي الفترة الأطول. وحفظ لنا المشاركة الفترة الدمشقية منها وهي الأقصر (1911 - 1927) ولكنها أنصفته وأشارت إلى تاريخه في الجزائر بقولها أنه كان مرا على الإستعمار الفرنسي في الجزائر، فنحن نعلم من مؤرخيه المشاركة انه نزل حين وصوله مع عائلته إلى دمشق بحج السويقة في جامع عز الدين، ثم انتقل إلى منزل الشيخ محمود أبو الشامات، واستقر في منطقة الصمادية حيث أسس زاوية وأقام دروسا وحلقات علمية.

ولما دخل الفرنسيون دمشق قارعهم وكان مرا عليهم رغم كبر سنه<sup>38</sup>. وقد سجنته فرنسا مطلع الاحتلال الفرنسي لسورية فهاجت دمشق حتى أطلق سراحه، وقد حاولت أن أترجمه في كتابي "الإشعاع المغربي في المشرق" المطبوع في الجزائر سنة

37 - أبو القاسم، سعد الله. مرجع سابق.

38 - الصواف، محمد عدنان (2004). موسوعة الأسر الدمشقية. دار الفكر، ج3، ص665، دمشق.

1997 منتظرا أن يصحح لي احد من عائلته أو أي من مثقفي تلمسان وشيوخها وللأسف لم استلم من احد لا تصحيحا ولا إضافة حتى الذين كتبوا عن الطرق الصوفية بما فيها الطريقة الشاذلية الدرقاوية لم يضيفوا شيئا، وكان ولا يزال يهمني في سيرته أمران :

**أولهما:** إن بعض المصادر الدمشقية تقول أنه كان يعد في الجزائر قبل هجرته منها إلى ثورة على فرنسا... وهذه المعلومة تحتاج إلى إجابة على أسئلة القصة كلها متى وأين وكيف ولماذا ومن...؟

**ثانيهما:** موقفه من الثورة السورية التي انطلقت ضد فرنسا في أواخر أيامه 1925 - 1927 وعلاقته بقائدها العسكري في الغوطة الأمير عز الدين الجزائري، فمعروف إن عائلة الأمير عبد القادر التي تولى بعضها الكتابة عن تاريخها، وتاريخ الأمير عز الدين ضربت صفحا عن كتابة تاريخ الجزائريين في دمشق من غيرها سواء كان بن يلس أو المبارك أو أي من العائلات الجزائرية وهي مثلبة كبيرة لكتاب هذه العائلة سواء الأمير سعيد بن علي أو بديعة الحسني أو غيرهما، وكذلك فإن الذين تناولوا الكتابة عن الثورة السورية الكبرى والحركة الوطنية السورية، ولا زالوا يكتبون. إنما يكتبون من وجهة نظر تدعي العلمانية وهو ادعاء يقتضي إقصاء دور الفئات الدينية في تحريك التاريخ وهو ما يعاني منه تاريخنا العربي في المغرب والمشرق على حد سواء. ومن تلك الفئات المقصاة فئة الطرق الصوفية بسلبياتها وإيجابياتها وشيوخها ورجالها. لذلك لم أجد ما يكفي عن موقف بن يلس ضد الفرنسيين في الشام، كما هو الحال مع موقفه ضدهم في الجزائر. وهو نقص تتحمله عائلته بالدرجة الأولى هنا وهناك، ويتحمله مؤرخو الطرق الصوفية وأدعياء العمل الإسلامي السياسي والديني بالدرجة الثانية، ويتحمله بالدرجة الثالثة مؤرخو حركة التحرر القومي العربي بتجلياتها الوطنية المحلية ويتحمله بالدرجة الأساسية من أخفى الوثائق أو أتلفها من قوى استعمارية ومحلية.

### هجرته إلى الشام ونشاطه فيها

هاجر الشيخ محمد بن يلس إلى الشام عبر البحر عن طريق طنجة في سبتمبر أيلول 1911. كان الشيخ محمد بن يلس من أشهر رجال الطريقة الشاذلية الدرقاوية في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعشرية الأولى من القرن العشرين، ولكن هذا الفرع الدرقاوي لم يكن معروفا في الشام فاكتمى بتدريس الشاذلية الأصلية في جامع عز الدين وفي بيته ثم في زاوية الصمادية بحي الشاغور، وكان له تلاميذ نذكر منهم: محمد الهاشمي، محمود السيد، محمد كيوان، احمد القصيباتي، احمد التلمساني واحمد الشميساني. كما كانت له ديوان شعر أيضا.

آوفف الشفآ محمد بن فلس بدمشق فوم الآلاء 26 ففسمبر 1927م أف فف ذات العام الالف انآهآ ففه الآورة السورية الكبرف ولكن المآادر لا آآآنا كآفرا عن ءوره فف هآه الآورة سؤف بفآارات عابرة وهؤ ما فآآآ إلى مزفء من البآآ والآنقفب.

#### ب- اآمء بن محمد بن فلس

ولء فف تلمسان سنة 1317هـ وهآر مع والءه محمد بن فلس سنة 1327هـ وظل ملازما لوالءه فف زاؤفة الصماءفة إلى أن أنشأ مءرسة بمناطقه مآذنة الشآم فف دمشق وهآه المآذنة الالف لا تزال قائمة آآى الفوم منذ العهد الأمؤف وهف الالف تم الآفاق على إبقاءها من المسآء الالف تم هءمه فف آارة النصارف بدمشق مقابل هءم الكنفسة الالف أءآلآ فف المسآء الأمؤف مع البقاء على قبر فوآنا المعمءان (الفف فآفف) الالف لا فزال قائما وسط المسآء. قرب هآه المآذنة بنف اآمء بن محمد بن فلس مءرسته الالف اسمها مءرسة الإرشاء والآنقفم.وقء زار تلمسان. كما كانت له مآالس ءكر فف زاؤفة والءه ففقرأ ففها همزفة البوصفر فف وبرءه. ومن مؤلفاه ءءكر الءاءق الوردفة فف الءروس الآوآفءفة، المآآآب من كلام العرب، العءء الآمفن فف سفرة سفء المرسلفن، المآموعة السنفة فف أوراء الساءة الشاذلفة الءرقاؤفة الالفمسانفة.

وآوفف بدمشق سنة 1379 هـ وءفن بمقبرة باب الصغفر قرب والءه.<sup>39</sup>

#### آ- محمد الهاشمف الالفمسانف

فلس هآاك آآاب صءر فف الشام عن الآفة الءفنفة والوطنفة فف سورفا بءءا من العشرفة الآنفة للقرن ألعشرفن إلا وآآآ عن الشفآ محمد الهاشمف الالفمسانف. وكنآ أففهم أن آآآآ عنه آلك الآآب الالف آآمل وآهة نظر ءفنفة فالرآل كان له شانء الءفنف.. ولكفف آرفبآ آآى أفهم سر آءفب الآآب السفساسة الوطنية عنه... إلى أن عآرآ على صور له وهؤ فآءرب على السلاح فف صفوف المنظمآ الشعبفة الالف آكونآ فف سورفة بعء العءوان الآلاف على مصر سنة 1956 وكان ءء أسن آآى أن صآففة سورفة كآبآ آآآر المعآفن من هآا الشعب الالف هرع ففه شفآ فف التسعفن من العمر هؤ محمد الهاشمف للآءرب على السلاح. (انظر الصورة رقم 54). وعرفآ أنه شارك فف عام 1920، فف معركة مفسلون ضد آفش الاآآلال الفرنسف الالف ففقوه الآنرال آورؤ، فقء كان رآمه الله فكره الاآآلال بكل أشكاله الآفاففة والاآآصاءفة وبنه على ءلك ءائما وكانه شاب فعفش عصره، ولما نءبآ الآكومة الشعب أيام العءوان الآلاف على مصر وما أكثر ما فبفب هآه الأمة، أسرع الآمفع وعلى رأسهم العلماء وأهل الفضل على الآءرب على السلاح، ونظمآ المقاومة الشعبفة وكان الشفآ رضف الله عنه

39 - سطفآ، الآافظ وزمفله. آارفآ علماء دمشق، دمشق ط1، آ1، ص 427.

من الأوائل في هذا الميدان، وصورته مع إخوانه شاهدة على ذلك، بل قام بحراسة حيه في المهاجرين وكان عمره قد جاوز السبعين.<sup>40</sup>

ولد محمد بن احمد بن الهاشمي بن عبد الرحمن بن بوجمعة الهاشمي يوم السبت 22 شوال 1298 هـ/1881م في مدينة سبدو التابعة لمدينة تلمسان. وكان والده من علمائها وقاضيا فيها، فلما توفي ترك أولادا صغاراً، وكان محمد أكبرهم سناً. بقي الشيخ مدة من الزمن ملازماً للعلماء، قد انتظم في سلكهم جادا في الازدياد من العلم، ثم هاجر مع شيخه محمد بن يلس إلى بلاد الشام احتجاجاً على قانون التجنيد الإجباري الذي فرضته فرنسا على الجزائريين. يقول أبو القاسم سعد الله (وكانت هجرته مع شيخه محمد بن يلس، أثناء الرعب الذي أصاب تلمسان، وكل الجزائر، من فرض التجنيد الإجباري على الشباب، وابن يلس هو شيخه في الطريقة الدرقاوية).<sup>41</sup>

قامت الدولة العثمانية بنفيه إلى أضنه في تركيا ووبقي شيخه ابن يلس في دمشق. وأطلقت سراحه بعد سنتين فعاد إلى دمشق، والتقى بشيخه ابن يلس من جديد وسكن في السويقة حي الجزائريين التاريخي بدمشق وعمل حارساً ليلياً في سوق مدحت باشا وفي بعض الشركات الحكومية<sup>42</sup>، ثم انتقل إلى حي المهاجرين قرب مقام محي الدين بن عربي.

وفي بلاد الشام لم تكن علاقته طيبة مع الدولة العثمانية وليس لدينا ما يوضح علاقته مع حكومة الملك فيصل التي جاءت بعدها وأما علاقته مع الإحتلال الفرنسي لدمشق فقد كانت دائماً متوترة إذ شارك الرجل ضدها في معركة ميسلون عام 1920.

شيوخه في الشام: تابع أخذ العلم عن أكابر علماء دمشق، ومن أشهرهم المحدث الكبير بدر الدين الحسيني، والشيخ أمين سويد، والشيخ جعفر الكتاني، والشيخ نجيب كيوان، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ محمود العطار وأخذ عنه علم أصول الفقه، والشيخ محمد بن يوسف المعروف بالكافي وأخذ عنه الفقه المالكي، وقد أجازة أشياخه رحمهم الله بالعلوم العقلية والنقلية.

أما من ناحية التصوف فقد أذن له شيخه محمد بن يلس بالورد العام، لما رأى من تفوقه على تلامذته، من حيث العلم والمعرفة والنصح لهم وخدمتهم. ولما قدم المرشد الكبير أحمد بن مصطفى العلوي من الجزائر لأداء فريضة الحج، نزل في دمشق ربيع 1930 / 1348 هـ وأذن لمحمد بن الهاشمي بالورد الخاص، تلقين الاسم الأعظم، والإرشاد العام نشاطه نشر الطريقة الشاذلية الدرقاوية في دمشق وحمص

40 - الحسيني، محمد عدنان المجد (2003). فيض الإله العلي في ترجمة سيدنا الهاشمي، ص9، دمشق.

41 - أبو القاسم، سعد الله. مرجع سابق.

42 - محمد، رضا بشير قهوجي. مرجع سابق ص81.

وحمة وحلب وغيرها في سورية والعراق ولبنان وفلسطين والأردن حتى عرفت باسمه ووصلت إلى تركيا وأوروبا وأمريكا<sup>43</sup>.

#### نشاطه:

كان بيته قبلة للعلماء والمتعلمين والزوار، لا يضجر من مقابلتهم، ويقوم - مع ضعف جسمه - حلقات منتظمة دورية للعلم والذكر في المساجد والبيوت، ويطوف في مساجد دمشق يجمع الناس على العلم وذكر الله والصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ولم يزل مثابرا على همته ونشاطه ودعوته حتى أيامه الأخيرة.

اشترك محمد الهاشمي عام 1946 في تأسيس رابطة العلماء التي رأسها أبو الخير الميداني وكان عضو مجلس شيوخها وحين انتخب الشيخ محمد الكتاني رئيسا لها انتخب الهاشمي نائبا للرئيس وشارك في مؤتمر هذه الرابطة عام 1957 الذي عقد خصيصا لنصرة الجزائر وكانت له اليد الطولى في تأسيس دائرة أرباب الشعائر الدينية التي لازالت قائمة حتى اليوم وقد ترأسها فترة من الزمن. كما سعى لبناء مسجد الرضوان في حي المهاجرين<sup>44</sup>.

عايش الشيخ الهاشمي ظروف سورية منذ الحرب العالمية الأولى : هزيمة الدولة العثمانية، الحكومة العربية بدمشق، الاحتلال الفرنسي 1920، الثورة السورية الكبرى 1925 - 1927 والمقاومة الشعبية السياسية للاحتلال الفرنسي، استقلال سورية 1946، حرب فلسطين 1948، الانقلابات العسكرية المتتالية في الخمسينيات، الوحدة السورية - المصرية 1958 وانفصالها في ايلول 1961، كما عايش الثورة الجزائرية 1954 - 1962 التي كانت محركا أساسيا للحياة السياسية الشعبية في سورية، ولا بد انه كانت له آراء لكننا لا نعرف أن أحدا سجلها أو كتب عنها. كانت لدروس ومجالس علمية يومية كثيرة في علة مساجد وأحياء دمشقية مثل الأموي، الشامية، المهاجرين، نور الدين، النقاشات... الخ.

كان للشيح محمد الهاشمي التلمساني تلاميذ كثر في بلاد الشام وفي تركيا وغيرهما ومن تلاميذه في سورية محمد سعيد البرهاني، وعيد القادر عيسى الحلبي، ومحمد النبهان الحلبي، هاشم السيد الدوماني، هاشم الخطيب، محمد سعيد البرهاني، إبراهيم اليعقوبي، يحيى بستنجي، مصطفى تركماني، وسعيد حوى وغيرهم كثير من مشاهير العلماء والمتصوفة في بلاد الشام وكل المنطقة.

#### مؤلفاته:

- 1- مفتاح الجنة شرح عقيدة أهل السنة.
- 2 - الرسالة الموسومة بعقيدة أهل السنة مع نظمها.

43 - أبو القاسم، سعد الله. مرجع سابق، ج7ص139.

44 - محمد، بن عبدالله المجد الحسني. مصدر سابق ص 5.

- 3 - البحث الجامع والبرق اللامع والغيث الهامع فيما يتعلق بالصناعة والصانع.
- 4 - الرسالة الموسومة بسبيل السعادة في معنى كلمتي الشهادة مع نظمها.
- 5 - الدرة البهية.
- 6 - الحل السديد لما استشكله المريد من جواز الأخذ عن مرشدين.
- 7 - القول الفصل القويم في بيان المراد من وصية الحكيم.
- 8 - شرح شطرنج العارفين للشيخ محي الدين بن عربي
- 9 - الأجوبة العشرة.
- 10 - شرح نظم عقيدة أهل السنة.

توفي محمد الهاشمي يوم الثلاثاء 12 من رجب 1381هـ الموافق 19 كانون الأول 1961م، وُصلي عليه بالجامع الأموي، ثم شيعته دمشق تحمله على الأكف إلى مقبرة الدحداح وبني له قبر خاص وضعت عليه يافطة تحمل عبارة مقام الشيخ محمد الهاشمي وقد زرت قبره في تسعينيات القرن العشرين وصورتها ثم زرتها العام 2010 فوجدت قبورا أخرى بجانب قبره داخل المقام نفسه وصورته ثانية.

#### د- أحمد الهاشمي التلمساني

هو ابن الشيخ محمد الهاشمي المذكور ولد في سبدو عام 1909م (1327هـ) في سبدو أي قبل هجرة والده إلى دمشق عام 1911. أخذ عن الشيخ جعفر الكتاني والشيخ بدر الدين الحسيني وأتقن الفرنسية، وظل يعمل في سوق الخياطين بدمشق إلى أن تفرغ لخدمة والده.

كان يزور أقاربه في الجزائر بين فترة وأخرى، يحسب من المتصوفين لكنه لم يصل إلى شهرة والده، ولم أعر له على مؤلفات توفي بدمشق سنة 1978.<sup>45</sup>

#### الخاتمة

وفي الختام لا بد لي من القول إن إسهام العلماء الجزائريين في جانب التصوف من الحياة الفكرية والعقلية في بلاد الشام كانت إسهاما عريقا حيث يمتد إلى العهد المملوكي الأيوبي، كما أنه إسهاما متواصلا لم ينقطع بل تجدد في منتصف القرن التاسع عشر حتى سبعينيات القرن العشرين للميلاد. وبالإضافة إلى العراق والتواصل فإن تأثير العلماء الجزائريين في التصوف ببلاد الشام ارتبط بقوة بالجهاد ضد الغزاة الصليبيين وضد المستبدين الطورانيين من الأتراك العثمانيين، ثم ضد الدول الاستعمارية الأوروبية وبالتحديد فرنسا وبريطانيا والحركة الصهيونية.

وأبرز البحث عدد من أسماء هؤلاء العلماء المتصوفة ومؤلفاتهم وأدوارهم

45 - مطبع، الحافظ وزمبله. مصدر سابق، ج2، ص719.



السياسية والجهادية والتعليمية ومناظراتهم الفكرية على مر القرون. وبذلك رآهم البحث صناعا للوعي في المشرق العربي فالتطرف الجهادي الذي أبلو فيه كان رافدا قويا لعلماء جزائريين آخرين جاهدوا في صناعة الفكر القومي العربي الإسلامي في كل المنطقة من الوطن العربي من أمثال الأمير عبد القادر والشيخ طاهر الجزائري والشيخ بن يلس المهاجر من تلمسان حيث يبرز علماء تلمسان نموذجا قويا للتصوف الجهادي في بلاد الشام، وقد أعطاهم الباحثون الدمشقيون حقهم بما ألفوه من كتب عنهم وحفظوا تراثهم.

## المراجع

- 1 - أحمد، علي (1989). الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن العاشر الهجري، ط1، دمشق.
- 2 - البيطار، عبد الرزاق حسن (1992). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ط 2، بيروت.
- 3 - الحافظ، سطيع وزميله. تاريخ علماء دمشق، دمشق 3 أجزاء.
- 4 - الحسيني، محمد عدنان المجد (2003). فيض الإله العلي في ترجمة سيدنا الهاشمي، دمشق.
- 5 - سعد الله، أبو القاسم (1996). تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- 6 - سوسة، أحمد (1985). للعرب واليهود في التاريخ. وزارة الإعلام، ط 5. بغداد.
- 7 - الصواف، محمد عدنان (2004). موسوعة الأسر الدمشقية، دار الفكر، ط 2، دمشق.
- 8 - العسكري، عبد الله عبود. تاريخ التصوف في سورية: النشأة والتطور، دمشق 2006، ط 1.
- 9 - عمار، علي حسن. الصوفية والسياسة في مصر، القاهرة 2007، ط 2.
- 10 - الغزالي، أبو حامد (د.ت). إحياء علوم الدين، دار الفكر، ط 1، بيروت.
- 11 - الغرفور، محمد عبد اللطيف صالح (1989). صفحات مشرقا وظلال وارفات من حياة العلامة الكبير السيد الشريف الشيخ إبراهيم اليعقوبي، ط 1، دمشق.
- 12 - قهوجي، محمد رضا بشير (2004). العلامة الهاشمي مربي السالكين. دمشق.
- 13 - المرابط، جواد (1966). التصوف والأمير عبد القادر الحسيني. دار اليقظة، دمشق.
- 14 - الشيرطية، فاطمة الحسنية (د.ت). رحلة إلى الحق.